

دور وأهمية المعطيات العلمية الحديثة في إثراء منهج

الخطاب العقدي في مقارنة الأديان

١. لمير طيوان

جامعة الأمير محمد القادر - قسنطينة -

مجاور المداخلة:

- مدخل
- علماؤنا الأوائل ومنهج الخطاب العقدي
- التعريف بمنهج علم مقارنة الأديان
- ضرورة تطوير منهج علم مقارنة الأديان اعتمادا على توظيف المعطيات العلمية الحديثة.

- الخاتمة

مدخل:

بداية يجب الإشارة إلى أن المسلم المهتم بدراسة الأديان عموما، والأديان السماوية خصوصا تحليلا ونقدا يؤمن — وإيمانه هذا شرط في صحة إسلامه — بما أنزل الله على موسى من تورا، وما أنزل على عيسى من إنجيل وبما خصهما من معجزات، ويؤمن بما سبقهما من أنبياء ومرسلين وما أنزل عليهم من وحي، استجابة لأمر الله تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا»¹.

¹ — النساء: 136.

وعليه فإن المسلم حين ينقد بعض هذه الكتب السماوية، فإنه ينطلق من مبدأ الموضوعية في البحث؛ رغبة في تبيان الحق، ودرءاً لما ينسب إلى الله تعالى من باطل، هو متره عنه، ولا ينطلق من أحكام سابقة قد يكون من أسبابها مثلاً:

1- العداء التاريخي بين أتباع دينين لا يتفقان في بعض العقائد.

2- الرغبة في نفي الآخر واستبعاده ظلماً وعدواناً.

3- أو العاطفة الدينية المتعصبة التي لسان حالها: إني لا أريكم إلا ما أرى.

فنحن في الوقت الذي نتجادل فيه مع أهل الكتاب بالحسنى فيما اختلفنا فيه نؤمن بما أنزل إليهم من وحي كما آمننا بما أنزل إلينا، اعتقاداً منا أن إلهنا جميعاً واحد وهو مصدر كل وحي سماوي صحيح.

علماءنا الأوائل ومنهج الخطاب العقدي:

إننا نشيد ونعتز بما أصله علماءنا الأوائل، سلفاً وخلفاً من مناهج في علم العقيدة الإسلامية ومقارنة الأديان كانوا يهجونها في الذود عن الإسلام ومقارعة خصومه من أهل الملل والنحل المختلفة، بفضل الله تعالى وتوفيقه استطاعوا أن يهزموا الخصوم بالبرهان والحجة الدامغة، ويردوا كيد الكائدين وافتراء المفتريين. ومما ساعدتهم على ذلك تسليحتهم بلغة الخطاب المناسبة لأعصارهم، وقد كانوا يتعمقون في فهم الديانات والمذاهب، ويتضلعون في العلوم، والمعارف، والفلسفات التي كانت ذائعة في أعصارهم، فكان لهم ذلك عوناً على سبك اللغة العقدية المناسبة لإفحام المستهترين بالدين والطاعنين فيه من جهة، وهداية الحائرين والضالين من جهة أخرى، فمما أثر عن هذا الجيل الغابر من العلماء المتكلمين على سبيل المثال لا الحصر، متكلم من المعتزلة، وهو أبو الهذيل العلاف (توفي: 235 هـ) — بغض النظر عن آراء المعتزلة المحافية للدين — الذي كانت له مناظرات كثيرة مع أصحاب الديانات والفلسفات، دخل يوماً على صالح بن عبد القدوس (ت 160

هـ) ليعزيه في ابنه المتوفى، وكان هذا الأخير زنديقا، ويتنحل مذهب السفسطائية في الشك، فوجده في حزن شديد، فقال له أبو الهذيل: "لا أعرف لجزعك وجها إذا كان الناس عندك كالزرع، فقال صالح: يا أبا الهذيل، إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك، فقال أبو الهذيل: وما كتاب الشكوك؟ قال: كتاب وضعته، من قرأه شك فيما كان يتوهم أنه لم يكن، وفي ما لم يكن حتى يظن أنه قد كان. فقال له أبو الهذيل: فشك أنت في موت ابنك واعمل على أنه لم يمت وإن مات، وشك أيضا في أنه قد قرأ هذا الكتاب وإن لم يكن قرأه، فحصر صالح².

[ولقي أبو الهذيل أيضا رجلا يهوديا يناظر جماعة من متكلمي البصرة في نبوة موسى عليه السلام، فتقدم إليه أبو الهذيل طالبا المناظرة. فقال اليهودي: أتعترف بأن موسى نبي صادق أم تنكر ذلك فتخالف صاحبك؟ فقال له: إن كان موسى الذي تسألني عنه هو الذي بشر بالنبي ﷺ، وشهد بنبوته وصدقه، فهو نبي صادق، وإن كان غير ما وصفت فذلك شيطان لا أعترف بنبوته، فقطعه أبو الهذيل في هذه المسألة. ثم قال له اليهودي: أقول إن التوراة حق؟ فأجابته: هذه المسألة تجري مجرى الأولى، إن كانت هذه التوراة التي تتضمن البشارة بالنبي عليه الصلاة والسلام فتلك حق، وإن لم تكن كذاك فليست بحق، ولا أقر بها، فبهت وأفحم ولم يدر ما يقول³، فلو لم يكن أبو الهذيل وأمثاله يتقنون المنهج المناسب في الحوار والمناظرة فهل كان سيفلح في إفحام الزنديق المتسفسط، واليهودي الجاحد لرسالة النبي ﷺ وكتابه؟

² — الشريف المرتضى، الأمالي، 177/1.

³ — المصدر نفسه، 178 / 1 - 179.

التعريف بمنهج علم مقارنة الأديان

وعن مناهج علم العقيدة الإسلامية هذه تفرع منهج علم مقارنة الأديان الذي يختص أساساً في محاور ومجادلة أهل الأديان المناوئة والجاحدة لدين الله الخاتم، الإسلام، من خلال النظر في نصوص هذه الديانات، مقابلة وموازنة بما في الإسلام من نصوص، وتبيان أوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف بينها وبين الإسلام، ويواجه المسلمون في هذا الإطار جبهتين من الخطر العقدي عليهم أن يتصدوا لهما وإلا تعرضت عقيدتهم للتقويض، إحدى هاتين الجبهتين هي: أن ما اتفق فيه المسلمون مع غيرهم يؤمن به المسلمون من طرف واحد باعتباره يتفق وما عندهم من وحي، بينما يعتبره غيرهم نقلاً وتلفيقاً من رسول الإسلام لكتب الوحي الأخرى كما يقول أهل الكتاب من المستشرقين⁴ وغيرهم، فاليهودية مثلاً لا تعترف بأي وحي جاء بعدها، كما أن المسيحية لا تعترف بأي وحي جاء بعد المسيح⁵، وعليه يعتبر أغلبية أهل الكتاب أن القرآن الكريم ألفه محمد ﷺ اعتماداً على مصدرين أساسيين هما: التوراة والإنجيل⁶، كما يعامل الإسلام في بلاد أهل الكتاب معاملة المنبذ المفترى عليه، فالمناهج الدراسية هناك تعلم الأجيال وتنشئهم على كراهية الإسلام والمسلمين، فالإسلام عندهم هو مجموعة من العقائد الحمدية التي ليس لله بها صلة، وأن أتباعه محمديون، كما تعتمد هذه المناهج إخفاء المكانة المرموقة التي يحتلها الإيمان بموسى وعيسى عليهما السلام ومن سبقهما من الأنبياء والمرسلين وما أنزل عليهم من وحي في

⁴ — مقال للدكتور، عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس، مطاعن المستشرقين في ربانية القرآن، مجلة

الشرعية والدراسات الإسلامية عدد: 38، أوت 1999، الكويت.

⁵ — موريس بوكاي، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة: 5-6.

⁶ — أبو المجد أحمد، حقيقة كتاب صلة القرآن باليهودية والمسيحية: 07.

قلوب المسلمين، وأن ذلك يعتبر شرطاً أساسياً في صحة إيمانهم⁷. ومعنى هذا كله أن القرآن متهم بعدم الأصالة والشرعية، الأمر الذي يدفع المؤمنين به إلى تبرئته مما افترى عليه. أما على صعيد الجبهة الثانية فعلى المسلمين أن يبرروا بقوة الحجة والبرهان أن ما اختلف عنهم غيرهم عما عندهم من وحي باطل ليس من وحي الله في شيء كاختلافهم مع اليهود في ذات الله وصفاته، واختلافهم مع أتباع المسيح في طبيعة المسيح. وهناك جبهة ثالثة يجب على أصحاب الأديان جميعاً مقارعتها هي جبهة الزنادقة والملحدين التي تتسلح بلغة العلم والمعرفة السائدين في كل عصر للاستخفاف بالدين وقيمه وقد جابه علماءنا الأقدمون منهم والمحدثون، هذه الجبهات، ونجحوا في سبيل ذلك مناهج شتى فأبْلَوْا بلاءً حسناً في الانتصار لهذا الدين والدود عن حياضه.

ضرورة تطوير منهج علم مقارنة الأديان اعتماداً على توظيف المعطيات العلمية الحديثة

وإضافة إلى جهودهم الجبارة ورغبة في تحقيق نفس الغاية، فإننا نرى من الضروري؛ مواكبة سنة التغير في التراكيب الذهنية والبنى الثقافية تطوير الخطاب العقدي في منهج علم مقارنة الأديان، أي تأصيل منهج جديد يضاف إلى المناهج المعتمدة في حوار الأديان ومجادلتها، ونعني به تحديداً، منهج الموازنة بين نصوص الدين وبين ما توصل إليه الإنسان من حقائق علمية، تكون فيه هذه الأخيرة فيصّل التفرقة بين صدقية وعدم صدقية النص الديني، على الأقل في النصوص التي لها ما يقابلها من الحقائق العلمية، هذا المنهج الذي تفتن إليه علماء الإسلام وبعض علماء الغرب بعد تقدم العلوم والمعارف الحديثة ابتداء من

⁷ — موريس بوكاي، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة: 6-7.

القرن العشرين، وتكمن أهمية هذا المنهج أساسا في إمكان تبرئة الدين نفسه إن كان وحيا صحيحا من عند الله مما اتهم به، في كونه لا يتفق مع العلم، وفي كونه محرفا أو ملفقا، خاصة وأن أطراف الاتهام كثيرا ما تنطلق في إلقاء تهمها من العلم، وتستخدم في جداولها مقولات علمية.

إن الوحي الصحيح لا يخشى شيئا تجاه توظيف هذا المنهج، لأن صحيح المنقول لا يتعارض وصريح المعقول كما اتفق على ذلك علمائنا، ولا يتعارض وما أثبتته الملاحظة العلمية الدقيقة، أو التجربة العلمية الحاسمة، فالوحي الإلهي الصحيح تتجلى أصالته على صفحات الأسفار كما تتجلى على صفحات الكون، فكلام الله تعالى الموحى إلى أنبيائه هو كتابه المسطور المحفوظ، وقوانينه وسننه التي بثها في عالمي الأنفس والآفاق هي كتابه المنظور المشهود، فكيف لهما أن يتناقضا، إذا لم يكن التناقض سببه ما اقترفته يد الإنسان في هذا الوحي أو ذاك من تحريف وتبديل، أو من سوء فهم وتفسير.

إنه مع إيماننا أن الوحي جاء لهداية الإنسان ورشاده، وتحقيق سعادته في الدارين، وليس كتاب علم متخصص في مجال من المجالات، إلا أن الوحي الصحيح لا يخلو من إشارات علمية دقيقة في عالمي الأنفس والآفاق، لذلك فإن توظيف ما اتفق فيه العلم مع الدين في تأصيل الدين هو منهج فذ. وفي هذا الإطار يقول الشيخ العلامة عبد المجيد الزنداني رئيس هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة:

«يمكن للمسلمين أن يترلوا العلم مترلته الصحيحة، وأن يضعوه في موضعه دليلا على الإيمان بالله سبحانه، وتصديقا لرسول الله ﷺ⁸ كما قال تعالى: «وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»⁹.

⁸ — هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة، إنه الحق: 52-53.

إن تعامل النصوص المقدسة مع العلم الحديث يكون بإحدى الطريقتين:

- الطريقة الأولى: أن يعرض المصدر الديني المقدس الواحد مستقلاً على المعارف العلمية الحديثة حسب طبيعة الموضوع الذي يثيره النص الديني، أي إما أن يكون الموضوع تاريخياً، فلوكيا، جغرافياً، جيولوجياً، في علم الحياة، أو في علوم المادة عموماً، ليتبين مدى اتفاق أو اختلاف المصدر الديني مع العلم الصحيح. وفي هذا الميدان نجد القرآن مثلاً، رائداً، إذ أشار إلى كثير من الحقائق العلمية المكتشفة حديثاً في شتى التخصصات العلمية، وقد أطلق على هذا النوع من التوافق بين نصوص القرآن والنتائج العلمية مصطلح الإعجاز العلمي في القرآن، وأنشئت لهذا الغرض هيئة علمية عالمية سميت بهيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة، من بين مهامها تقرير وتأسيس كل ما اتفق فيه العلم مع نصوص القرآن والسنة، وقد تضمن القرآن نحو سبع مائة وخمسين آية أشارت إلى حقائق علمية وسيستمر ظهور مثل هذه الحقائق كلما تقدم العلم البشري، تصديقاً لوعده الله لما سيريه للناس — مؤمنهم بالقرآن وكافرهم به — من آيات، يكون القرآن السابق في تبيانها. قال سبحانه:

« وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا »¹⁰. وقال: « سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »¹¹. وهذه الآيات التي سيرها الله لعباده، تتكشف لهم حيناً بعد حين كما قال تعالى: « إِنَّ هُوَ

⁹ — سبأ: 08.

¹⁰ — النمل: 93.

¹¹ — فصلت: 53.

إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ»¹². فمن يتأمل إظهار الله لآياته المعجزة في هذا القرآن وجد أنها تتحقق حيناً بعد حين، فلا يمر عصر من الأعصار إلا وظهرت فيه آية معجزة، كل ذلك دليل ساطع على أن هذا القرآن ليس إنشاء من النبي ﷺ اعتماداً على التوراة والإنجيل، أو غيرهما، وإنما هو وحي إلهي بشهادة الله تعالى نفسه كما قال: «لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ»¹³. قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: لكن الله يشهد بما أنزل إليك أي وإن كفر به من كفر ممن كذبك وخالفك، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب وهو القرآن العظيم ... ولهذا قال: أنزله بعلمه أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وفيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب إلا أن يعلمه الله به¹⁴ كما قال: «وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ»¹⁵.

فالقرآن إذن في هذا المجال لا يخشى عليه خاصة إذا لم تقحم نصوصه إقحاماً في أي اجتهاد علمي بعيد عن التريث والتثبت. ولقد بدئ في تطبيق هذا المنهج في الخطاب والجدال العقدي الإسلامي منذ القرن العشرين بشكل أساسي، نجد ذلك واضحاً على سبيل المثال لا الحصر في كتابات العلامة مصطفى صبري، والعلامة وحيد الدين خان —

¹² — ص : 87 - 88.

¹³ — النساء: 166.

¹⁴ — ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 2 / 457.

¹⁵ — البقرة: 255.

رحمة الله عليهما — وفي كتابات الشيخ عبد المجيد الزنداني حديثاً حفظه الله، وغير هؤلاء كثيرون.

أما بالنسبة لغير القرآن والسنة من الأديان الأخرى فلم نعلم شيئاً عن تعاملها مع العلوم والمعارف الحديثة، ولم نعلم شيئاً عما يسمى بالإعجاز العلمي مثلاً في التوراة أو في غيرها، وإنما الشيء المؤكد أن رجال الدين في الأديان الأخرى يرفضون فكرة المقابلة بين العلم والنصوص الدينية، وفي هذا الإطار يقول أحد المنظرين للمنهج العلمي في مقارنة الأديان حديثاً، وهو موريس بوكاي: "ولكن تطور العلم كشف للمفكرين عن وجود نقاط خلاف بين الإثنين، وبهذه الطريقة خلق ذلك الوضع الخطير الذي جعل اليوم مفسري التوراة والأنجيل يناصبون العلماء العداء، إذ لا يمكن في الحقيقة أن نقبل بأن رسالة إلهية متزلة تنص على واقع غير صحيح بالمرة، وبناء على ذلك فليس هناك سوى إمكانية واحدة للتوفيق المعقول بين الأمرين، وهي عدم قبول صحة المقطع الذي يقول في التوراة بأمر غير مقبول علمياً، ولم يكن هذا الحل طواعية بل بالعكس، فقد تعصب بعضهم بشدة للاحتفاظ بتمام النص، وقد كان نتيجة هذا أن اضطروا المفسرون إزاء صحة الكتب المقدسة إلى اتخاذ مواقف لا يمكن قبولها من قبل رجل العلم"¹⁶.

فالتهمة ثابتة بالنسبة للنصوص المقدسة الأخرى في مجافاتها في كثير من المواضيع للعلم الحديث الأمر الذي أحدث تأزماً وانفصاماً خطيرين — خاصة قبل أن يصبح نقد النصوص الدينية علماً — بين مفكر محقق ينشد الحق واليقين هاله ما علم من نص ديني

¹⁶ — موريس بوكاي، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة : 11.

مقدس يوصف بأنه وحي إلهي يحوي على أفكار تناقض الحقائق الصادقة، وبين رجل دين يتشبث بقداسة وصحة ما أقر شرعيته من نصوص. هذا بالنسبة للطريقة الأولى.

- الطريقة الثانية: وتكمن في موازنة النصوص المقدسة لأكثر من مصدر ديني واحد معاً، والتي تثير موضوعاً واحداً مع المعطيات العلمية الحديثة، نجد مثل هذه الطريقة قد انتهجها بشكل أساسي موريس بوكاي المفكر الفرنسي الشهير في كتابه: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، وقد كانت نتائج هذه الموازنة أن القرآن كانت المواضيع التي أثارها لا تختلف إطلاقاً مع معطيات العلوم الحديثة بينما غيره يتفق أحياناً ويتناقض أحياناً أخرى مع العلم، فعلى سبيل المثال لا الحصر، نجد في موضوع خلق الكون الذي أثاره القرآن والتوراة معاً بشكل موسع، نجد التوراة في ذكرها لمراحل الخلق الواردة في سفر التكوين¹⁷ تتحدث عن انتظام ظاهرة تعاقب الليل والنهار التي هي نتيجة لدوران الأرض حول نفسها وحول الشمس، في اليوم الثالث من مراحل الخلق، في الوقت الذي تؤكد فيه التوراة أن وجود الشمس كان في اليوم الرابع¹⁸. بينما القرآن يذكرهما معاً في وقت واحد في إطار كونهما آيتين مسخرتين كما قال تعالى: «وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»¹⁹.

الخلاصة:

إننا أردنا من خلال إثارتنا لهذا الموضوع التنبيه إلى ضرورة تطوير الخطاب العقدي في علم مقارنة الأديان مناشدين علماء الأديان والمتصدرين للدعوة والدفاع عن حقائق الإيمان

¹⁷ — سفر التكوين : 1 / 9 - 20.

¹⁸ — موريس بوكاي، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة: 41.

¹⁹ — إبراهيم: 33.

تأصيل وتفعيل الخطاب العقدي بلغة العلم الحديث، خطاب يعضد فيه العلم العقل والشعور والعاطفة، خطاب يستعين فيه النص الديني الصحيح بالحقيقة العلمية الصحيحة، فالنص الديني الصحيح هو كتاب الله المسطور، والحقائق العلمية في عالمي الآفاق والأنفس هي كتاب الله المشهود المنظور.

فهرسة المصادر والمراجع:

- 1- القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع، مؤسسة الرسالة، ط1، دمشق، 1421 هـ .
- 2- الكتاب المقدس، دار كتاب المقدس في العالم العربي، د ت.
- 3- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ط8، دار الأندلس، بيروت، لبنان، 1986 م.
- 4- الشريف المرتضى، أمالي المرتضى، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، الحلبي القاهرة، 1954 م.
- 5- مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، عدد 38، أوت، الكويت، 1999 م.
- 6- أبو المجد أحمد، حقيقة كتاب صلة القرآن باليهودية والمسيحية، ط1، دار البعث فلسطين، 1986 م.
- 7- هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة، إنه الحق، منشورات، دحلب، الجزائر، د.ت.